

قاسم سليمانى شهيد القدس وفلسطين

أنيس نقاش*

منذ أن انطلقت جماهير الشعب الإيراني الى شوارع المدن الإيرانية لتخوض غمار أعظم ثورة في التاريخ الحديث، كانت شعارات الموت لإسرائيل حاضرة، إن لم يكن بنفس القوة مع باقي الشعارات، فهي بالتأكيد كانت من أكثرها وضوحاً. وبما أن فلسطين كانت تشكل قمة الظلم على الصعيد الدولي، وقمة القضايا الإسلامية بسبب احتلال المقدسات، فقد أصبحت متلازمة مع أهداف الثورة وقيمها الى يومنا هذا.

إنطلق الشاب قاسم سليمانى مع اندلاع الحرب المفروضة على إيران من قبل نظام الرئيس صدام حسين، من قرينته في محافظة كرمان، مع مئات الآلاف من أمثاله من الشباب الثوري للدفاع عن بلدهم. لم يكن يومها قد تلقى علوماً عسكرية مسبقة، ولكن الميدان وبعض التدريبات السريعة كانت كافية، الى جانب المعنويات العالية والإيمان الخالص بعدالة قضيته جعلت منه قائداً ميدانياً متميزاً. إلا أن أهم ما حصل مع هذا الشاب وانطبع في شخصيته، كانت فكرة الشهادة التي بدأت تتجسد أمامه ليس فقط مع فقدان أعزّاء من أترابه من الذين قاتلوا الى جنبه ومعه وتحت قيادته و استشهدوا، ولكن بمعايشة هؤلاء الشهداء، قبل استشهادهم وبعد رحيلهم، فكانت آية: أحياء عند ربّهم يرزقون، متجسدة أمامه بشهادات حية ومشاهدات ملموسة.

وعندما كان يقرأ كتاب الشهيد مطهري، عن "فلسطين كربلاء العصر"، كان ينتظر الفرصة المناسبة لكي ينخرط بمعركة تحرير فلسطين ودعم الشعب الفلسطيني، وتحقيق أمنيته للاستشهاد من أجل فلسطين.

مع إنتهاء الحرب الظالمة، وبعد مهمات تحملها بكفاءة للدفاع عن الحدود الإيرانية، كان لا بدّ أن يحقّق أمنيته بالالتحاق بقوة القدس التابعة للحرس الثوري، وهي قوة كانت قد أنشئت من أجل دعم حركات التحرّر الوطني في العالم، وعلى قاعدة تضامن كل المحرومين المظلومين، وبالطبع كان على رأسها دعم قضية فلسطين.

* منسّق شبكة أمان للأبحاث والدراسات.

وما إن تسلّم الحاج قاسم مسؤولية قيادة هذه القوة حتى شهدنا تصاعداً في فعالية الأنتفاضة الثانية في فلسطين وتعاضماً في قدرات المقاومة.

وقد أتت أهم الشهادات لهذه الفعالية على ألسن قادة هذه المقاومة، فكلمًا التقوا بالسيد القائد على الخامني، كانوا يفاجأون بحجم المعلومات الدقيقة، ليس فقط عن تاريخ القضية وما يحيط بها من مواقف سياسية، بل عن تفاصيل العمليات التي نجحت والتي فشلت وعن سؤاله عن أوضاع الأسرى بالاسم وكأنهم أبناءه. وعندما سؤلت مرّة عن سرّ هذه الإحاطة، لم يكن من بد من الشهادة، بأن كل ما لدى السيد القائد هو بفضل ذلك الساهر ليلاً نهاراً على متابعة ما يجري في داخل الأرض المحتلة ومن حولها.

كان الشهيد سليمان يتحدث دائماً عن الشهادة وأهميتها، ولكنه كان يقول دائماً، "النية أصل العمل، وإن كانت النية خالصة لله فالتوفيق لن يكون إلا من عند الله". والنية في الوجهة السياسية عند الشهيد قاسم سليمان كانت معقودة على تحرير فلسطين ومقدّسات المسلمين. فهذه المعركة، أي "حرب التتبير" كما دُكرت في القرآن الكريم، هي معركة الله بجند الله وحزبه، وما نصرها إلا من عنده.

وحتى عندما كان يصارع العدو الأمريكي في أفغانستان أو العراق، لم تكن النية عنده إلا من أجل فلسطين، التي تتطلب هزيمة الداعم الأول لهذا الكيان. وما كانت حركته في دعم المقاومة في لبنان إلا على نية تحرير الأراضي اللبنانية من أجل الانطلاق بعدها نحو تحرير فلسطين. لهذا كان حاضراً بنفسه في كل معاركها تقريباً، ويتابعها عن قُرب، مُخطّطاً وداعماً، يمدها بالإمكانات وبما تحتاجه لتحقيق النصر.

بنفس الروحية، بل بمجهود مضاعف، كانت حركته باتجاه فلسطين، لأهمية هذه القضية المحورية، ولصعوبة الوصول إلى داخل الأرض المحتلة. وهنا نستطيع أن نقول ونسرد (في المستقبل) أحداث وبرامج وطرق الوصول لهذا الدعم التي تلامس الأساطير، والتي بمجرد نجاحها شكلت نصف هزيمة للعدو الذي يملك أفضل أنواع أجهزة الرصد والحماية في العالم. ومع ذلك تمكن الحاج قاسم، مع إخوته في المقاومة الإسلامية في لبنان، وبدعم مطلق من الجمهورية الإسلامية وسورية، وعبر السودان وطرق أخرى، إيصال المساعدات العسكرية وتطوير قدرات المقاومة. حتى يمكن القول إن هذه الخطط بحدّ ذاتها تشكّل القسم الأكبر من أسطورة صمود المقاومة الفلسطينية وسرّ انتصارها القادم.

كم من مرّة، بعد تحرير جنوب لبنان، كان الشهيد قاسم سليمان يقف مع الشهيد عماد مغنية لينظرا إلى فلسطين، ويمتّيان نفسيهما بالاستشهاد في سبيلها. وكان سليمان يصرّ في كل إجتماع يجمعه مع قادة

الفصائل على متابعة كل التفاصيل والاطمئنان على مسار تأمين ما تحتاجه المقاومة في فلسطين. وفي عزّ المعارك التي خاضتها غزّة، كان حضور الشهيد الحاج قاسم واضحاً في غرفة العمليات الموحدة التي تقود هذه المعارك، وتؤمّن لها الدعم المادي والمعلومات والتوجيه وقيادة العمليات.

فلسطين كانت بوصلة الشهيد سليمان، والشهادة في سبيلها كانت أمنيته، وهكذا، وإن استشهد على أرض العراق، فذلك لم يكن سوى ضمن مصارعة العدو الأكبر الداعم للعدو الصهيوني هناك، أي الولايات المتحدة، تمهيداً لمتابعة معركة تحرير فلسطين.